

من العربية الخاصة «النصرانية»

مستفادة من «المجلد»

في الكتابين الموسومين بـ «أخبار بطاركة كرسي المشرق»

الأول لعمر بن مَتَّى والثاني لماري بن سليمان

من مطبوعات رومة (الفاتيكان) القديمة

وأعاد نشرهما قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد

هذان الكتابان النصرانيان مما كتب وألف منذ أكثر من سبعة قرون، وقراءتهما مفيدة من الناحية الدينية للنصارى عامة، كما أن فيهما فائدة تاريخية للمعنيين بتاريخ النصرانية في ديار المشرق.

وقراءة ما في هذين السفرين المفيدتين للمعنى بالعربية وتاريخها فوائدها جليلة، منها: كيف كانت هذه العربية الخاصة لدى النصارى في عهود الدولة الإسلامية؟ إن العربية في هذين الكتابين نمط غريب يلتقي فيها اللون العامي باللون الفصيح، فيأتي من هذا اللقاء، أو قل من مجموع هذا الاختلاط، لغة فصيحة عامية، لا يمكن أن تندرج إلا في عداد الألسن الدارجة الخاصة. ثم إنها موسومة بسمة خاصة لا نجد لها في غيرها من الألسن الدارجة؛ تلك هي سمة النصرانية، وما أمدتها من كلم جديد مُعَرَّب، أو قل مُنْصَرَّ، أصله كلمات أفرنجية كما سنرى. وهذه اللغة العربية العامية الخاصة قد عرفت طائفة من الكلم النصراني الشرقي، وهو الكلم السرياني.

ولنعرض لنماذج من هذه العربية فنقول:

سأضع بين يدي القاريء نموذجين، أولهما من كتاب عمرو بن مَتَّى، وثانيهما من كتاب ماري بن سليمان.

جاء في كتاب عمرو بن مَتَّى ص ١٢:

شحلوفا:

هذا الأب كان شيخاً مفروق اللحية، حكيماً عالماً ماهراً، من أهل كشكر، مقداً في أهل زمانه، عارفاً بالأمر، حافظاً للعلوم، وكان فيه لطفاً (كذا) عجيباً... ماهراً في الخطب... وكان أسقفاً، وظهر منه رغبة في عمارة البيع، وتعهد المساكين، وتفقد الأسكوليين، فاختر للفطركة....، فاجتمع الآباء وعقدوا له الاسياميد بيعة المدائن، وهو لابس بيرون أخضر، ورعي غنم المسيح أحسن رعاية، ودبر الأمور أشد تدبير، وفي أيامه أسيم أغناطيوس تلميذ يوحنا الإنجيلي فطر كاً على أنطاكية، وهو الذي رأى الملايكة (كذا) يشمسون كدين، أعني يصلون صفيين.

واستباح هذا الأب الطاهر في السنة الرابعة من ملك شابورين ادرشير، سنة خمسة وخمسين وخمسمائة يونانية..

أقول:

في هذه الترجمة الدينية النصرانية لجر من أحبارهم نقرأ عربية خاصة ليس فيها شي من العربية المعروفة في زمن المؤلف، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي أي الثامن الهجري.

هي عربية ينطلق بها اللسان سحابة يومه، فلا عناية فيها بالكلمة ولا الجملة. وقد تتنكر لقوانين العربية في نحوها وصرفها، ثم أن فيها من الكلم الدخيل النصراني، مما هو سرياني أو هو من لغات أعجمية غريبة، شيئاً واضحاً.

إنك تجد فيها «الأسكوليين» أي الدارسين أصحاب المدارس الدينية، كما تجد الأسياميد وهو مجمع الرؤساء الدينيين الكبار لبيعة أحدهم أو تقليده بمنصب ديني مثلاً.

ردع عنك كلمة الفطرك والفطركة، وقف على قوله «أسيم» أي «سُمي» وقوله «استنام» بمعنى «توفى». وهذه من غير شك من أصل آرامي قديم.

وقوله: «يشمسون كدين» التي شرحها المنصف فقال أعني يصلون صفيين.

إن جملة هذه الأشتات وغيرها مما تجاوز فيها المؤلف نظام العربية نحواً، ليحملني على أن أدرج هذه اللغة في حيز الألسن الدارجة التاريخية في العربية القديمة.

ومن المفيد أن نقف على نص آخر من كتاب ماري بن سليمان، فنختار من غير قصد ما ورد في الصفحة ٨٢:

يرحنا بن نرسي:

ذكرنا الله بصلواته، وقدسَ روحه، من أهل الكرخ، وكان أسقفاً على الأنبار، وبعد موت أنوش وقع في قلب عبدون بن مخلد وسلمة بن سعيد اجلاسه (كذا)، وكانا مقيمين بسر من رأى و متمكنين من السلطان، واختارا أن يكون الاجتماع للاختيار عندهما. فاجتمع الآباء بالمطيرة، وكان في عمر الكرسي راهب فاضل نسيب عبدون، فاختره قوم بسبب، وكتب اسميهما وغيرهما في بنادق بيض وعمل السهر (كذا). ومع الفراغ من الرازين حضر الآباء ورؤوس المؤمنين، فخرج اسم يوحنا، وأسيم الأحد الثالث من قداس البيعة سنة إحدى وسبعين ومائتين للعرب، وقرأ الإنجيل يوم الأسياميد جبريل مطران البصرة، وتكلم فأحسن، وكان قيوماً مطران نصيبين المقترش قائماً في جملة القسان، وازدحم الناس عند دخوله من البيم إلى المذبح، حتي انهدم بعض الحايطين المبنية (كذا) مكان الديرانيات، ووقع علي فخذ بعض المؤمنين فكسره.

واغتمَّ الجاثليق وسائر الناس وابتدا بالأمانة، وأخذ الجاثليق كأساً وجعل فيه حناناً وماءً ورسم ذلك به، فقام على رجليه وتضاعفت مسرة الناس، وياكر سحراً دير التابوت للتجلي على رسمه وعاد وعمل الرازين، وأحضر ثلاثة ليسميهم، أحدهم من كشكر، فقال له حنانيشوع أسقف كشكر: أن أحدهم لا يصلح أن يسام، ففطن الجاثليق وقال: أظنه من كرسيك.

أقول: نقف في هذا النص على جملة فوائد تؤلف في مجموعها ما يصيغ على هذه المادة صفة كونها أديباً عامياً، ينطلق فيه صاحبه على سجيته في لغة يومه. نقرأ فيه كلمة «اجلاسه» ويراد بها ما نريد بـ «جلسة» في لغتنا المعاصرة. والعمر من بيوت النصارى كالدير في العربية القديمة، ولم يبق له شيء في الوجود في عصرنا.

وقوله: «نسيب عبدون» من اللغة المحكية، فليس النسيب باللغة العالية كالصهر، وهو الباقي في الدارجة المعاصرة.

وقوله: «وعمل السهر» أي أنهم سهرروا في اجتماع لشيء ما.

«الرازين» من الكلم النصراني الديني، ومن هذا الكلم النصراني «البيم» لموضع في الكنيسة أو الدير، وكذلك «المذبح». وأنت تجد الفعل «أسيم» كما وجدناه في النص السابق، بمعنى سَمِي. ومثل هذا «استنام» بمعنى توفي.

قلت: ومادة النص في جملتها عربية عامة ذات صلة بالفصيحة، تقدم لنا فوائد تاريخية جلية.

ومن سمات هذه العامية القديمة - كما أشرنا - تجاوز النحو في المرفوع والمنصوب. وفي طوقنا أن نحصي من ذلك عشرات النماذج بل أكثر من ذلك. ثم تجاوز الصرف فقد «أعمد» بمعنى «عمد» من «المعمودية».

ومن ذلك قولهم:

وأقرّ لماري بالإلاهة وأراد الألوهية. (ص ٥ ماري بن سليمان) وقولهم: وكان عالماً صالحاً مشفياً (كذا) للمرضي. (ص ٧ ماري بن سليمان) والصواب: شافياً.

وأصعد إلى بغداد من غير أن يمضي إلى دير مار ماري على الرسم، فتطير الناس من ذلك، ونزل دير الجائليق، واجتمع الناس للقيال، وسألوا في أمر قيوما مطران نصيين، ووعد. ثم ورد يوانيس مطران الموصل لأنه لم يحضر بل إنه كان كتب خطه بالرضى، وكان بينه وبين الجائليق مودة وقرابة، وقام (كذا) عنده مدة، وسأله في باب قيوما، وتلطف وجماعة الأمثال فحلّه وفرجَ عنه (كذا).

وهدمَ دير الجائليق دفعتين في أيامه، واتصلت الفتن، وبني دفعتين وهدم، وبعد الجائليق إلى أيام المعتضد وعاد وبني الدير ولم يطب نفساً بالمقام فيه، وسكن في دار الروم في بيعة أصبغ العبادي.

وأسام سابور الراهب من عمر الزيتون بالرقه كرهاً علي جند يسابور، وقال الوقت قصر، واستنام ليلة الميلاد لليلتين خلتا من شوال سنة تسع وسبعين وماتين (كذا) للهجرة وصلّي عليه، ذكرنا الله بصلواته ورزقنا شفاعته وبركاته.

وعند ادارته بصقَ عليه رجل مسلم لهواً (كذا) فسقط من وقته، وعمل له من حضر من الآباء اشيفتا وطرحوه ملقى على التابوت وبريء واستغفر وقال: رأيت يداً خرجت ولطممتي، وخرجت وأقامتني. ودفن إلى جانب المذبح الصغير في بيعة أصبغ..

وقوله: ... متعاهد للمساكين والأسكولات (ص ٧ ماري بن سليمان).

وقوله: ... وفي أيامه بدأ يكتب الاقلاسيطيات (ص ٨ ماري بن سليمان) والأسكولات جمع أسكول وهو معروف وقد كنا أشرنا إليه.

والاقلاسيطيات هي الأدبيات التي تتصل بالكنيسة ورسومها وطقوسها وهي تعريب (Ecelesiastique).

وتقرأ في الكتاب ص ٩: وقرروا ما هو مسطوراً (كذا).

وكذلك: يفعل الجرائح بمعنى يقوم بجراحة المريض.

ومن هذا الشيء الكثير الذي لا حصر.

وبعد فهذه المواد اللغوية في هذه النماذج العربية النصرانية ذات قيمة في إفادة من يتصدي لتاريخ هذه اللغة العريقة.

ومن المفيد أن نعرض لطائفة ألفاظ النصرانية مما ورد في المصادر العربية، ومن ذلك ما ورد منها في كتاب «الديارات» للشابشتي، وقصيدة أبي القاسم مدرك بن محمد الشيباني، التي وردت في جملة من كتب التاريخ والأدب.